Kırıkkale Üniversitesi
Sosyal Bilimler Dergisi (KÜSBD)

ISSN 2146-2879 Kirikkale University Journal of Social Sciences E-ISSN: 2717-6231

Makale Bilgisi/Article Info
Geliş/Received: 13.11.2020 Kabul/Accepted: 04.04.2021
Konferans Bildirisi/Conference Paper, s./pp. 727-740

الحطيئة بين البخل والكرم (قصيدة "وطاوي ثلاث" نموذجاً)

Ahmad SHAIKH HUSAYN [i]

ملخص

عصفت حوادث الدهر به، فمرّت على كاهليه ثقيلة، دفعته إلى أن يعيش حياة مزدحمة بالهموم والمصاعب والتّحديات، إنه الحطيئة الذي علا كعبه في الهجاء؛ فغدا أول الساخرين في الأدب العربي.

يناقش البحث قضية البخل والكرم عند الحطيئة، وذلك من خلال نشأته وما ورد من أخباره من ناحية؛ ومن ناحية أخرى من خلال أشعاره، لذلك فقد ارتأينا أن نقسم البحث قسمين: قسماً يناقش أخباره الاجتماعية، وقسماً يستند على هذه الأخبار فيدرس أشعاره المتعلقة بقضية البخل والكرم ولاسيما قصيدته (وطاوي ثلاث) للوصول إلى غاية البحث؛ وهي الإجابة على التساؤل الذي طرحه البحث: هل اتصف الحطيئة حقيقة بالبخل، أم أنه كان كريماً على غير ما كان يُشاع عنه؟

الكلمات المفتاحية: الحطيئة، الشعر، الكرم، البخل، وطاوي ثلاث.

el-Hutay'e'ye Göre Cimrilik Ve Cömertlik
"VeTâvî Selâs Kasidesi Örneği"

Öz

Kederler, musibetler ve sıkıntılar yaşayan ve omuzlarında ağır yük taşımasına neden olan zor dönemler geçiren el-Hutay'e, Arap edebiyatının ilk hiciv şairi ve bu sanatta ileri düzeye ulaşan şairlerin başında gelmektedir. Bu araştırma; cimrilik ve cömertlik konularını şairin, sosyal hayatı hakkında bize aktarılan rivayetler ve şairin cimrilik ve cömertlik hakkında söylemiş olduğu kendi şiirleri ışığında incelemektedir. Araştırma iki bölümden oluşmaktadır. Ayrıca araştırmanın ana teması olan "VeTâvî Selâs" kasidesi, araştırmamıza konu olan el-Hutay'e gerçekten cimri birisi miydi? Yoksa genel kanının aksine cömert bir insan mıydı? Sorusuna cevap bulma noktasında son derece önemlidir.

Anahtar Kelimeler: el-Hutay'e, Şiir, Cömertlik, Cimrilik, VeTâvî Selâs.

Huteia between miserliness and generosity
The poem "Va Tawi Thalath" as a model

Absract

Life accidents plagued him, and laid its burdens on him, that pushed him to live a miserable life full of difficulties, and challenge, and worries, for his out stauding talent in satire, He became the first cynic in Arabic literature. The paper discusses the issue of miserliness and generosity of Huteia, through his life and the news reported about him on the one hand, and the poems the he left behind on the other hand. Through his poems, we have decided to divide the research into the parts: one of them discusses his

[i] Dr. Öğr. Üyesi, Kilis 7 Aralık Üniversitesi İslami İlimler Fakültesi, Temel İslam Bilimleri Bölümü, ahmadssh65@kilis.edu.tr. http://orcid.org/0000-0001-6646-704X

social life, and the other depends on his biography with studying his poems related to the issue of miserliness and generosity, especially his poem (Va Tawi Thalath) to reach the goal of this research. The question that was -Huteia characterized by stinginess, or was he generous in contrast to what was rumored about him?

Keywords: Huteia, Poem, Generosity, Miserliness,WaTawi Thalath.

المقدمة

عاش الحطيئة حياة مليئة بالمصاعب والهموم والأحداث التي لا يقوى على حملها إنسان، وربما يرجع ذلك –في نظر أغلب النقاد– إلى نسبه من جهة، وإلى شكله من جهة أخرى.

سنحاول في هذا البحث أن نعيش مع شخصية الحطيئة لنسبر أغوارها، وننبش ما فيها من خفايا كان لها ارتداداتها المؤثرة على نفسيته؛ ومن ثم نعرّج على حياته وعلى بعض الأحداث التي مرّ بها، لنقترب قدر المستطاع بعد ذلك إلى حقيقة اتصافه بالكرم أو بالبخل.

من هنا كان لزاماً علينا أن ندرس حياة الحطيئة اجتماعياً، والتي كان لها الدور الأكبر في انعكاسها على نفسيته التي ستكون عصا ارتكازنا في البحث، هذا من الجانب الأول، أما من الناحية الثانية فإننا سنتطرق إلى تجربته الشعرية؛ بكونها الصورة النفسية التي تعبر عن خلجاته وخفايا مشاعره وإحساساته، وذلك من خلال الوقوف على قصيدته "وطاوي ثلاث".

الفصـل الأول

١– نشأة الحطيئة وأثرها في شعره:

١–١–اسمه ونسبه:

هو جَرْول بن أوس بن مالك بن جُؤَيَّة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قُطيعة بن عَبْس بن بَغيض بن الرَّيْثِ بن غَطَفان بن سعد بن قَيس بن عَيْلان بن مُضَرَ بن نِزار، وهو من فحول الشعراء ومتقدِّميهم وفصحائهم، كان جشعاً سؤولاً، ملحفاً، دنيءَ النفس، كثير الشرِّ، قليل الخير بخيلاً، قبيح المنظر، لقِّب بالحطيئة؛ (ابن منظور، ١٤١٤هـ، ج١/ص٥٧،) لقصره وقربه من الأرض، أو لدمامته، وقيل: لأنَّه ضربطَ بين قوم، فقيل له: ماهذا؟ فقال: إنما هي حَطَأَة ، يُقال حَطَأَ: إذا ضرط، وقيل أيضاً: لأنَّه كان محطوءَ الرِّجْل؛ والرِّجْلُ المحطوءةُ: التي لا أخمص فيها، وقد أجمع الرُّواة على أنه نشأ في حجرِه مغموز النسب؛ لِأَمَةٍ تُسمَّى الضرَّاء، كانت لأوس بن مالك العبسي، ونسَبُه مُتَدافعٌ بين القبائل، فكان ينسب نفسه إلى كل قبيلةٍ إذا غضب على الآخرين، فتراه تارة ينتسب إلى عبس، وتارة أخرى إلى بني ذُهْل (أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٥٧؛ وابن قتيبة، ١٩٨٢، ج١/ص٣٢٢؛ والحطيئة، ١٩٩٣، ص٧؛ والبغدادي، ١٩٩٧، ص٤٠٦؛ والمُبَرِّد، ١٩٩٧، ج٢/ص١٤٢؛ والصفدي، د. ت، ج٩/ص٢٧؛ وابن سلام، د. ت، ج١/ص١١٣؛ والبيهقي، ١٩٩١، ج١٢/ص٢١٢)، ويبدو أن هذا ماجعله قلقاً مضطرباً في الحياة من حوله، ولعل ما زاد في اضطرابه وقلقه ضعفُ جسمه وقبح وجهه، يضاف إلى ذلك جُبنه وعدم تحليه بالشجاعة (ضيف، د.ت، ص٩٥–٩٦)، ولعل أظهر خصلة من خصال

الحطيئة... أنه كان يمثل الجاهلية في حريته وإباحته وانصرافه عن الدين إذا خلا إلى نفسه... وكان رقيق الإسلام، ضعيف الإيمان (حسين، ٢٠١٢، ص٢٥٦).

١-٢-الحطيئة بن أبيه:

أجمع الرواة على أن الحطيئة مغموز في نسبه، مجهول الأب، حتى ذهب الأصفهاني إلى أنه "كان من أولاد الزنا الذين شرُفوا" (أبو الفرج الأصفهاني،١٩٥٢، ج٢/ص١٥٨)، وفي رواية الأغاني أنّ الضرّاء (والدة الحطيئة) كانت جارية عند مولاة لها يقال لها (بنت رياح) وهي من قبيلة ذُهْل ولها أخٌ اسمه الأقْقَم، وعندما ولدت الضرَّاء الحطيئة سألتها مولاتها بنت رياح عن أبيه، فخشيت الضراء أن تقول لها إنه من زوجها أوس، بل قالت: إنه من أخيها الأقم بعد أن شبَّهته به (الأصفهاني،١٩٥٢، ج٢/ص١٥٩).

يبدو أن هذا الأمر قد شكل نقطة انعطاف في حياة الحطيئة، فأن تكون ابن أمك، مجهول الأب والنسب، والكل يطاردك بنظراته، ويجرحك بلسانه، فيغمز ويلمز في كل وقت وحين، ربما دفع ذلك كلُّه بالحطيئة نفسياً إلى أن يفرّغ بالهجاء واللعن والشتم، فراح يهجو كل من تقع عليه عينه، حتى برع أيما براعة في هذا الباب.

لكننا نعود إلى الحالة النفسية التي كان يعيشها الحطيئة من خلال هذا الجانب، ولنرَ مدى تأثيره عليه، ولننظرْ إلى موقفه عندما سأل أمَّه: مَن أبوه؟ فخلطت عليه، فقال:

تقولُ لِيَ الضرَّاءُ لستَ لواحد ... ولا اثنينِ فانظرْ كيفَ شِرْكُ أولئكا
وأنتَ امرؤٌ تبغي أباً قد ضَلَلْتَهُ ... هَبِلْتَ أَلمَّا تَسْتَفِقْ من ضَلالِكا[١]
(الأصفهاني،١٩٥٢، ج٢/ص١٦٠؛ والحطيئة، ١٩٩٣، ص٩).

من غير شك لم يكن هذا الجواب ليشفيَ غليله، ويبدو أنه قد عزّز لديه فكرة النفور من هذا المجتمع، ومن ثم عزّز لديه أيضاً انصرافه إلى الهجاء باباً للتفريغ عما يجيش بداخله من ألم وغصَّة من ناحية، ومن ناحية أخرى الوقوف في وجه هذا المجتمع والتصدي له، ولاسيما في مجتمع يُعلي من شأن النسب فيربطه بكينونة الإنسان ووجوده، بل يعد النسب والشرف من أهم المعايير في تحقيق الوجود والهوية، لذلك راح يعوِّض عن هذا النقص بموهبة تكون بمثابة النسب الجديد الذي ينتمي إليه، نسب الكلمة "نسب الشعر الذي كان له في ذلك العصر المكانة المرموقة والموقع الفصل، ولذلك نرى ابن الكلبي يقول عنه: وكان من أولاد الزنا الذين شرُفوا، وهذا الشرف الذي يقصده، إنما هو شرف الكلمة التي أحسَّ بقدرتها وتأثيرها على أولئك القوم" (الحطيئة، ١٩٩٣، ص٩)، وها نحن نراه يهجو أمَّه بعد أن تزوجت برجل من بني عبس "اسمه الكلب بن كُنَيس بن جابرٍ بن قَطَن بن نَهْشَل، وكان ولد زنا" (الحطيئة، ١٩٩٣، ص١٦٢)، ويهجوه معها قائلاً:

[١]- يقال: هبلته أمه أي ثكلته.

ولقد رأيتُكِ في النساء فسؤتني وأبا بنيك فساءني في المجلسِ
إنَّ الذليلَ لمن تزور ركابه رهط ابن جحشٍ في الخطوب الحوَّسِ[٢]
قبَّحَ الإلهُ قبيلةً لم يمنعوا يومَ المجيرِ جارَهم من فقعسِ[٣]
أبلغ بني جحش بأن نجارهم لؤمٌ وأنَّ أباهمُ كالهجرسِ[٤]
(الحطيئة، ١٩٩٣، ص٩).

١-٣- السعي إلى الانتماء:

إن الإهانة التي لحقت بالحطيئة جرَّاء نسبه، "زادت في تعميق إحساسه بالغربة، وتدني مفهوم الذات لديه في مجتمعه" (علي هصيص، ٢٠١٥، ص١٣)، الأمر الذي دفعه إلى أن يبحث عن قبيلة أو طائفة ينتمي إليها ليتخلص من هذا الشبح الذي يطارده في حياته على الدوام، فنراه تارة ينتمي إلى بني ذُهْل بنِ ثعلبةَ، قائلاً :

إنَّ اليمامةَ خيرُ ساكنِها أهلُ القُرَيّةِ من بني ذُهْل
(الأصفهاني،١٩٥٢، ج٢/ص١٥٨)

قال: والقُرَيّة: منازلُهُم، ولم ينبت الحطيئةُ في هؤلاء.

ونراه تارة أخرى يضرِبُ بنسبه إلى بكر بن وائل، وفي ذلك يقول:

قومي بنو عوف بن عمرٍو إن أراد العلم عالمِ
قومٌ إذا ذهبَتْ خَضَارِمُ منهُمُ خَلَفَتْ خَضَارِمْ[٥]
لا يَفْشَلون ولا تَبيتُ على أُنوُفِهِمُ المَخَاطِمْ[٦]
(الأصفهاني،١٩٥٢، ج٢/ص١٥٨)، فهو بذلك ينتسب إلى عمرو بن عوف (الحطيئة، ١٩٩٣، ص١٨٤).

(الأصفهاني،١٩٥٢، ج٢/ص١٥٨)، فهو بذلك ينتسب إلى عمرو بن عوف (الحطيئة، ١٩٩٣، ص١٨٤).

وتارة أخرى يزعم أنه من بني عَوْف بن عامر بن ذُهْلٍ:

سِيري أُمَامَ فإنَّ المالَ يجمعُه سَيْبُ الإله وإقبالي وإدباري
إلى معاشرَ منهم يا أُمامَ أبي من آل عَوْف بُدُوءٍ غيرِ أشْرار[٧]
نمشي على ضوء أحسابٍ أَضَأْنَ لنا ما ضوَّأتْ ليلةُ القَمْراءِ للسَّاري
(الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٥٩).

[٢]- الحوَّس: الأمور الشداد التي تنزل بالقوم فتغشاهم.
[٣]- فقعس: حيٌّ من بني أسد.
[٤]- النجار: الحسب والأصل. الهجرس: ولد الثعلب أو القرد، وقد يوصف به اللئيم
[٥]- الخضارم: جمع خضرم، وهو الجواد الكثير العطية، وقيل السيّد الحمول.
[٦]- المخطم: موضع الخطام من الأنف، والخاطم: واضع الخطام في أنف البعير، وهو حبل يوضع في أنف البعير ليقاد به.
[٧]- البدوء: جمع بَدْء وهو السيّد.

إذاً فعقدة النقص التي كانت تلاحقه، عقدة الانتماء، عقدة فقدان الأب والنسب، يضاف إلى ذلك صفاتُه الخَلْقيَّة، من دمامة وقصر، كل ذلك ربما جعل من الحطيئة شاعراً هجَّاءً، حادَّ الطبع، متقِّلب المزاج، سرعان ما يثور، وقد أشار طه حسين إلى ما يبرر تلك الحدة في مزاجه، فهو كان "مضطراً إلى أن يحمي نفسه من السخرية والاستهزاء، وكان كل شيء يقوّي في نفسه سوء الظن بالناس، وقبح الرأي فيهم، وكان ابتلاؤه للناس يزيده إسراعاً إلى ذلك، وإمعاناً فيه، فأصبح الحطيئة شيئاً مخوفاً مهيباً يُكره منظرُه، ويُتّقى لسانُه، وتُشترى الأعراضُ منه بالأموال" (حسين، ٢٠١٤، ص١٣٨)، حيث توصل إلى نتيجة مفادها أن الكلمة وحدها هي القادرة على توفير الكرامة له، وإزالة الشعور بالمهانة والانتقاص اللذين لحقا به جرَّاء نسبه المغموز (الحطيئة، ١٩٩٣، ص٧).

١-٤- حرمانه من ميراثه:

إذا كان الشرف والنسب يتربعان على سلّم أولويات الإنسان العربي، فإن المال لايقل أهمية عنهما، على الأقل عند الحطيئة الذي حاول جاهداً أن لا يضيع المالُ منه كما ضاع نسبه من قبلُ، فبعد أن فَقَدَ أباه ردحاً من الزمن، وبعد أن أخفت عليه أمُّه حقيقةَ أبوَّته، الأمر الذي دفعه إلى هجائها ومن ثم النفور منها، وبعد أن وجد نفسه وحيداً في هذه الحياة القاسية، راح يحث الخطا في البحث عما يعوّض عنه نسبه، عله يستعيد بعضاً من مكانته بين الناس الذين يرمقونه بأعينهم في كل وقت وحين، فلم يجد غير المال حلاً لهذه المعضلة، لذلك راح يبحث عنه بكل ما أوتي من عزم وإصرار، وهو الذي يرى السعادة والعيش الكريم في المال، فمن مَلَكَهُ فقد حاز فضلاً عظيماً لا يقل شأناً عن الشرف والنسب، بل إن الشرف والحسب لا يقومان إلا بالمال كما يرى:

وإني قد علقْتُ بحبلِ قومٍ أعَانَهُم على الحَسَبِ الثَّراءُ

(الحطيئة، ١٩٩٣، ص٣٣).

إنَّ فكرةَ ارتباط المال بالحسب لدى الحطيئة من ناحية، وفَقْره من ناحية أخرى، كلّ ذلك كان كفيلاً بأن يحثّ الخطى سعياً عن ميراثه الذي ضاع مع ضياع نسبه، فكيف له أن يطالب بهذا الميراث طالما أنه مجهول الأب والنسب؟

بعد أن ولدت الضَرَّاءُ الحطيئةَ، سألتها مولاتها بنتُ رياحٍ: مَن أبوه؟ هنا خشيتْ أمُّ الحطيئة –أمام سيِّدتها– أن تقول لها: إنه من سيِّدها أَوس (زوجِ بنتِ رياح)، فما كان منها إلا أن علِقَتْهُ بالأقْقَم، وهو أخو بنتِ رياح، ورد هذا الخبر في كتاب الأغاني مفصّلاً (الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٥٩)، لكن ما يسترعي اهتمامنا في هذا الخبر، هو ما سيترتب عليه من مطالبة الحطيئة لإرثه، فمَن سيطالب بعد أن ضاع نسبه؟ بتتبعنا لهذا الخبر نجد أنَّ الضّرَّاء قد تزوّجت من رجلٍ من بني عبس بعد أن مات أوسٌ سيِّدُها، وكان أوسٌ هذا قد ترك ابنَيْن من بنت رياح (وهما في هذه الحالة أخوَا الحطيئة من أوس)، أمَّا بنتُ رياح فسرعان ما أعتقت الحطيئةَ وربَّتْهُ بعد أن تزوجت أمُّه، فكان كأنه أحدُ أخويه.

بعد أنْ أَعتقتْ بنتُ رياح أمَّ الحطيئة، سرعان ما اعترفت هذه الأخيرة أنها اعْتَلَقَت من أوس بن مالك، لتبدأ رحلة الحطيئة بمطالبته بالإرث، فذهب إلى أخويه، وقال لهما: "أَفْرِدوا إليَّ من مالِكُم قطعةً، فقالا: لا، ولكن أَقِمْ معنا فنحن نواسيكَ، فقال:

أأمرتُماني أن أُقيمَ عليكما كلَّا لَعَمْرُ أبيكما الحَبَّاقِ[٨]
عبْدانِ خيرُهما يُشَلُّ بضَبْعِهِ شَلَّ الأجيرِ قَلائِصَ الوَرَّاقِ[٩]
(الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٦٠).

وعندما فقد أمله في الحصول على مايريد منهما، ما كان منه إلا أن أدار الدّفة في اتجاه أخر مصوّباً وجهته إلى بني الأفقم الذي نُسِبَ إليه أَوَّل ما نُسِب، فسألهم ميراثَه "فأعطوه نخلاتٍ من نخل أبيهم تُدْعى نخلات أمِّ مُلَيكةَ، وأمُّ مليكة: امرأةُ الحطيئة، فقال:

لِيَهْنِي تُراثي لِامرِئٍ غيرَ ذِلَّةٍ صَنَابيرُ أُحْدَانٌ لَهُنَّ حَفيفُ[١٠]
(الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٦٠).

فلم يقتنع بهذه الأعطية، وقيل إنه قد أقام فيهم وقتاً ليس بالقليل، فعاد وسألهم ميراثَهُ كاملاً، "فلم يُعطوه شيئاً وضربوه، فغضِبَ عليهم، وقال:

تَمَنَّيْتُ بَكراً أن يكونوا عِمَارتي وقَومي وبَكْرٌ شَرُّ تلك القبائلِ[١١]
إذا قُلْتُ بكريٌّ نَبَوْتُم بحاجتي فيا ليتني مِن غيرِ بكرِ بنِ وائلِ
(الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٦١).

فبعد هذا الهجاء، وبعد أنْ أصبحت بكر شرَّ القبائل، عاد فيمَّمَ وجهَهُ شطرَ بني عبس، و"لمَّا أتى أهلَ القُرَيَّة، وهم بنو ذُهلٍ، يطلبُ ميراثَهُ، مدحهم قائلاً:

إنّ اليمامةَ خيرُ ساكنها أهلُ القُرَيَّة من بني ذُهلِ
الضامنونَ لِمَالش جارِهِمُ حتى يتمَّ نواهضُ البقلِ[١٢]
قومٌ إذا انتسبوا ففرعُهُم فَرعي وأثبتُ أصلهم أصْلي
(الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٦١)

فلم يلتفتوا إليه، ولم يعطوه أي شيء، فعاد إلى هجائهم:

إنَّ اليمامةَ شَرُّ ساكنها أهلُ القُرَيَّة من بني ذُهلِ
(الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٦١).

إن أعباء الطفولة –فيما نظن– ظلت تراوده في أحلامه، وتطارده في يقظته، وكأنها لعنة حلَّت به فأبت الرحيلَ عنه، إن إحساسه الدائم بفقده للحسب والنسب والشرف، جعله يخسر الجانب الاجتماعي في حياته، والتي كان من الممكن أن يعيشه كبقية أقرانه من الناس، فحاول أن يسد هذه الثغرة في حياته من خلال مطالبته بالميراث، لكن مع الأسف أوصدت

[٨]- الحباق: الذي يصدر ريحاً. يُشل: يُطرَد. الضبع: وسط العضد بلحمه.
[٩]- الوراق: صاحب الورق: المال من إبل ودراهم وغيرها.
[١٠]- الصنابير: الدقيق والقليل من كل شيء. أحدان: أفراد لانظير لها.
[١١]- العمارة: أصغر من القبيلة، أما ترتيبها تنازلياً: الشعب، القبيلة، العمارة، البطن، الفخذ، العشيرة، الفصيلة، والرهط. نبوتم: تجافيتم، وتباعدتم.
[١٢]- نواهض البقل: ما استوى منه.

الأبواب جميعها في وجهه، لذلك نجده يتجه إلى كسب المال من طريق أخرى وذلك من خلال شعره ولسانه السليط الذي أطلقه ليصيب به من يريد.

الفصــل الثانــي

٢- *أخباره فيما يتعلق بالبخل والكرم:*

أجمع أغلب الرواة على بخل الحطيئة وجشعه، وقد كثُرت الروايات في هذا الباب، فهل أنصفوه في ذلك أم أنهم ظلموه؟

بادئ ذي بدء، لابد لنا من أن نورد هذه الروايات لنقف عندها، فهي –إضافة لنشأته الاجتماعية التي فصَّلنا فيها– تعتبر بمثابة المصباح الذي سيضيء لنا ظلمة الدرب الذي سلكه الحطيئة، ويرشدنا لنتلّمس حقيقة البخل من عدمه عند هذا الشاعر، ومن ثَمّ ننتقل إلى قصيدته "وطاوي ثلاث" لنقف عند أحداثها بالتفصيل، والتي يمكن أن توضح لنا الرؤية أكثر في نهاية المطاف.

ورد في الأثر أنَّ "بخلاءَ العربِ أربعةٌ: الحطيئةُ، وحميد الأرقط، وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان" (الأبشيهي، د. ت، ج١/ص١٨٣.).

هذه المقولة العامَّة لا تسمن ولا تغني من جوع طالما أنها لم تُشفع بالأمثلة والأحداث؛ فإذا ما تتبعنا الأحداث التي مر بها الحطيئة من جانب، وأشعاره من جانب آخر؛ ربما نتوصل إلى ما توصل إليه أغلب الرواة والدارسين، أو ربما ننفيه، فهل كانت هذه النتيجة –من قبل الرواة– تعتمد على ما يمكن أن يفضي إليها، فنركن نحن لهذا الحكم النهائي على الشاعر؟ أم أنها كانت تجنّياً على شاعر لم يكن في يوم من الأيام من الذين جعلوا أيديهم مغلولة إلى أعناقهم؟

وردت عدة أخبار عن بخله في كتب الرواة، نذكر منها حادثتين على سبيل المثال لا الحصر: الحادثة الأولى جرت بينه وبين الشاعر ابن الحمامة عندما قَدِمَه ذات مرَّة "فقال: السلام عليكَ؛ فقال الحطيئة: كلمة تُقالُ ليس لها جواب؛ فقال: أألِجُ؟ قال: وراءَكَ أوسعُ لكَ؛ قال: قد صهرتني الشمسُ؛ قال: عليكَ بالجبل يفيء عليكَ ظلُّهُ؛ قال: قد احترقتْ رِجْلاي؛ قال: بُلْ عليهما تبرُدا؛ قال: إني مُرْمِلٌ؛ قال: لمْ أضمَن لِأهلكَ زادك؛ قال: إني جائع؛ قال: اصْبِرْ حتى نتغدَّى؛ فإن فضُلَ من غلماننا وأجرائنا شيءٌ كنتَ أحقَّ به من الكلب؛ قال: أنا ابنُ حمامة الشاعر؛ قال: كن ابن أي طير الله عزَّ وجلَّ شئت" (الضبّي، د.ت، ص٢٧٨).

أمَّا الحادثة الثانية فقد أوردها صاحب الأغاني والجاحظ في البيان والتبيين، وغير قليل من الرواة والمؤرخين، وذلك عندما "أتى رجلٌ الحطيئةَ وهو في غَنَمٍ له، فقال له: يا صاحبَ الغنم، فرفعَ الحطيئةُ العصا؛ وقال: إنها عَجْراء من سَلَم – والعجراء: العصا التي فيها عقد. السلم: شجر معروف– فقال الرجل: إني ضيف؛ فقال: للضِّيفَانِ أعددتُها، فانصرف عنه" (الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٧١. الجاحظ، ١٩٩٨، ج٣/ص٨٠).

إنْ صحت هاتان الروايتان عن الحطيئة، فينبغي لنا أن نطلق الحكم ونَسِمُه بالبخل، لكننا ما نزال في رَيْبٍ من أمرنا بشأن ذلك، لذلك ينبغي علينا أن نتتبع أشعار الحطيئة وما يتعلق بهذا الجانب.

إن المتتبع لأشعار الحطيئة، أو الردود عليها؛ لابد وأن تقع عيناه على أبيات؛ قد يستدل منها أنها غاية البخل التي وصل إليها الحطيئة، وقد يتساءل أحدهم: لماذا غاية البخل هذه؟ الإجابة: إن العرب وإن بخل أحدهم، فمن المستبعد جداً أن يهجو ضيوفه، وأن يعرِّض بهم، لأن الفقراء منهم كان يقدمون كل ما يملكونه للضيف، إلا الضيف فهو منزَّه، وهو خارج إطار دائرة البخل أو ما يمكن أن يمت إليها بصلة، أما الحطيئة فقد خرج عن هذه القاعدة وراح يهجو أضيافه، حتى قيل فيه: "لم ينزل ضيفٌ قطُّ بالحطيئة إلا هجاه" (الأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص١٧٢)، فقيل بأن الشاعر صخر بن أعيى الأسدي – شاعر أموي كانت له مساجلات مع الحطيئة– قد نزل به ذات مرّة، فقال الحطيئة بعد أن سقاه شربةً من لبن:

لمّا رأيتُ أنّ ما يبتغي القِرى وأنّ ابنَ أعيى لا محالة فاضحي
سددْت حيازيمَ ابن أعيى بشَربةٍ على ناقةٍ شدَّتْ أصولَ الجوانحِ(١٣)
وما كنتُ مثل الهالكيّ وعِرسه بغى الودَّ من مطروفة العين طامحِ(١٤)
(الحطيئة، ١٩٩٣، ص٥٩).

فما كان من ابن أعيى إلا أن وصفه بالبخل، وبأنه يسيء إلى ضيوفه أيما إساءة، لا لشيء إلا لأنهم قد حلّوا ضيوفاً عنده، فهاهو يحاول خَنْقَ كلبه حتى لا ينبح فيستقدم الطُرَّاقَ والضيوفَ، بل إنَّه راح يبكي على ماقدَّم، وماذا قدَّم؟ إنَّه اللبن المخلوط بالماء، يقول في ذلك:

ألا قبَّح اللهُ الحطيئةَ إنَّه على كلِّ ضيفٍ ضافَه هو سالِحُ(١٥)
دُفِعْتُ إليهِ وهو يخنقُ كلْبَهُ ألا كلُّ كلبٍ لا أبا لك نابحُ
بكيتَ على مَذْقٍ خبيثٍ قَرَيْتَه ألا كلُّ عبسيٍّ على الزادِ شائِحُ(١٦)
(الجاحظ، ٢٠٠٩، ج١/ص٢١٧؛ والأصفهاني، ١٩٥٢، ج٢/ص ١٧٢–١٧٣).

ونراه في موطن آخر يهجو رجلاً من أضيافه قد ألقى التحية عليه مرتين إيحاءً منه أنه يطلب القرى، فما كان من الحطيئة إلا أن انقضّ عليه بلسانه السليط غير آبه بإكرام الضيف:

سلَّم مرتين فقلتُ مهلاً كفتْكَ المرَّةُ الأولى السَّلاما
ونَقْنَقَ بطنُهُ ودعا رُؤاساً لما قد نال من شبعٍ وناما(١٧)
(الحطيئة، ١٩٩٣، ص١٨٤).

ولربما يوحي البيت الثاني أن الحطيئة قد أطعم ضيفه حد الشبع؛ إلا أن الحديث عن إطعام الضيف بهذه الطريقة يعتبر منقصةً بحق المُضيف.

١٣- الحيازيم: الصدور، الجوانح: جوانح الصدر. يريد أن هذه الشربة قد ملأت جوفه فسدّت الخلل الحاصل في الضلوع.

١٤- الهالكي: رجلٌ من بني أسد، كانت امرأته قد كرهته فاحتالت له حتى سقته سمّاً فقتلته. عرسه: امرأته.

١٥- سالح: الذي يُخرج الخبائث.

١٦- مذق: شراب. قريته: قدمته وأطعمته. شائح: البخيل الحذر.

١٧- نقنق: رجّع الصوت، فقرقر بطنه من الشبع، رؤاس: قوم المهجو

يبدو أن خصلة البخل قد لازمت الحطيئة كظله، ولعل من نعته بهذه الصفة لم يكن من فراغ، فهو أقدم على فعل يعتبر من أكثر الخصال عيباً وقلة في المروءة عند العرب وهو هجاء الضيف.

٢-١- قصيدة "وطاوي ثلاث":

كثير من الدارسين والنقاد أطلقوا على هذه القصيدة (قصة كرم)، وهي بحق من عيون الشعر العربي، وروائعه، وصل بها الحطيئة حد الإبداع، وذلك من خلال وصفه الدقيق لشخوص القصة من جانب، ولأحداثها من جانب آخر، ويبدو أن مقولة (أعذب الشعر أكذبه) قد تمثلت في هذه القصيدة بشكل جليّ ، فهي تتحدث عن حالة غريبة وفريدة من حالات الكرم، أغرق الشاعر في وصفها حد المبالغة، وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بأخبار كرماء العرب أمثال حاتم الطائي الذي غدا مضرباً للمثل، كما حفلت أيضاً بأخبار بخلائهم في الجانب الآخر، لكن ما يهمنا في هذه القصيدة أنها تتحدث عن كرم، ربما لم نعهد مثيلاً قبل الحطيئة أوممن جاء بعده، فأن يصل الشاعر إلى الحد الذي يهمّ بذبح ابنه ليقدّمه طعاماً للضيف؛ هذا لعمري مما لم تأتِ على ذكره كتب التاريخ قاطبة إلا عند الأنبياء والرسل أمثال سيدنا إبراهيم الذي أمره الله تعالى بأن يقدم ابنه إسماعيل قرباناً.

لذلك؛ وقبل أن نقرأ هذه القصيدة قراءة نقدية لابد لنا من أن نرتكز على ما توصلنا إليه من أخبار الحطيئة وأشعاره، فهو –كما رأينا– رجل شديد البخل، لم يتوانَ عن هجاء ضيوفه، فكيف لهذا الشاعر أن تنقلب به الحال رأساً على عقب فيتحول إلى رجل كريم فاق أشد الناس كرماً؟

يبدأ الحطيئة قصيدته بوصف غاية في الإبداع، فيتحدث عن ذلك الرجل الموحش الذي انفرد بالصحراء مبتعداً عن البشر، ثم ينتقل إلى الحديث عن امرأته العجوز وأبنائه الثلاثة الذين أرهقهم الجوع من شدة الفقر، لتبدأ الحبكة القصصية مع قدوم الضيف قائلاً:

وَطاوي ثَلاثٍ عاصِبِ البَطنِ مُرمِلٍ ... بِتيهاءَ لَم يَعرِف بِها ساكِنٌ رَسما[١٨]
أَخي جَفوَةٍ فيهِ مِنَ الإِنسِ وَحشَةٌ ... يَرى البُؤسَ فيها مِن شَراسَتِهِ نُعمى[١٩]
وَأَفرَدَ في شِعبٍ عَجُوزاً إِزاءَها ... ثَلاثَةُ أَشباحٍ تَخالُهُمُ بُهما
حُفاةٌ عُراةٌ ما اغتذوا خبز مَلَّةٍ ... ولا عرفوا للبُرِّ مُذ خُلقوا طعما

(الحطيئة، ١٩٩٣، ص١٧٨)

لقد طوى الجوع هذا الرجل الفقير الذي اعتاد شظف العيش، ولزم صحراء قاحلة، فهو لم يذق الطعام منذ ثلاث ليالٍ، إنه يجنح إلى العزلة، لا يألف الناس، بل على العكس من ذلك؛ إنه يرى السعادة في وحدته، في هذه الظروف القاسية أسكن هذا الرجل زوجته وأولاده الثلاثة الذين غدوا كالأشباح من شدة الجوع، فهم لم يعرفوا طعماً للخبز مذ ولدوا.

[١٨]- الطاوي: الجائع، ثلاث: ثلاث ليال، عاصب البطن: الذي يتعصب بالخرق ويشدها على بطنه من الجوع، المرمل: المحتاج، التيهاء: الصحراء، الرسم: ما بقي منم آثار الديار.

[١٩]- الجفوة: غلظ الطبع. الملة: الرماد الحار، البُر: القمح.

الحطيئة في هذه القصيدة إنما يتحدث عن نفسه وعن عائلته، لننطلق إذاً من هذا الإسقاط حتى تتوضح لنا الصورة أكثر، فهي لا تحتاج إلى إغراق في التحليل، لأن الشعر شكل حلمي –كما يرى **شنايدر**– وإبداع لحلم اليقظة (عطية، ١٩٩٣، ص ٣١.)، وإذا ما نظرنا إلى الجانب الفني من الحلم، وجدنا علاقة وثيقة بينه وبين الخيال الشعري، فالحلم –في رأي **بودلير**– لا يعني أن يركن المرء إلى النوم وينتظر ما تجود به الرؤى، بل إنه –على النقيض من ذلك– ينبغي أن يظل في حالة اليقظة، وأن يعاني في إبداعه الشعري (فتوح، ١٩٨٤، ص١١٦.)، أما عند **رامبو**، فإن عملية الحلم تبدأ بمزيج من الأوهام والرؤى السكرى التي تنبع من اللاشعور، ومن ثم فإن الشاعر يحاول –بعد يقظته– أن يستعيدها صوراً من التذكر ليترجمها إلى شكل فني (فتوح، ١٩٨٤، ص١١٧).

تبدأ الحبكة القصصية بمجيء الضيف الذي يطلب القرى، ما الذي يمكن أن يقدّمه الحطيئة في مثل هذه الظروف القاسية التي يمر بها؟

رَأى شَبَحاً وَسطَ الظَلامِ فَراعَهُ فَلَمّا بَدا ضَيفاً تَسَوَّرَ وَاهتَمّا[٢٠]
فَقالَ اِبنُهُ لَمّا رَآهُ بِحَيرَةٍ أَيا أَبَتِ اِذبَحني وَيَسِّر لَهُ طعما
وَلا تَعتَذِر بِالعُدمِ عَلَّ الَّذي طَرا يَظُنُّ لَنا مالاً فَيوسِعُنا ذَمّا[٢١]
فَرَوّى قَليلاً ثُمَّ أَجحَمَ بُرهَةً وَإِن هُوَ لَم يَذبَح فَتاهُ فَقَد هَمّا

(الحطيئة، ١٩٩٣، ص١٧٨).

وذات ليلة ليلاء يأتي هذا الضيف وكأنه شبح أوجس الشاعر منه خيفةٍ، حتى تبين له أنه ضيف ليس إلا، لكن على الرغم من زوال هذا الخوف إلا أن الهم والحزن قد سيطرا على الشاعر، فماذا يمكن أن يقدّم له؟ ثم يبدأ مناجياً ربه: أيا رباه إنني لا أملك شيئاً أقدمه لهذا الضيف، فلا تحرمه هذه الليلة اللحم، غير أن ابنه يحاول أن يخرج أباه من هذا المأزق، وذلك من خلال تقديم نفسه قرباناً، والخشية كل الخشية أن يحسب هذا الضيف أننا نملك المال، فيبدأ بذمنا، فما كان من الشاعر إلا أنه تردّد في ذبح ابنه قبل أن يهم بذلك.

إن المتتبع لشخصية الحطيئة وما جبل عليها من بخل لابد وأن يرى هذه القصة ضرباً من الخيال، فالذي كان يهجو كل ضيف يحل به لاشك أنه لن يقدم على التفكير بذبح ابنه من أجل إطعام الضيف.

يبدو أنها محاولة لاشعورية من لدن الحطيئة للتعويض عن عقدة البخل التي لازمته طيلة مسيرته، فحاول من خلال هذا المشهد الخيالي أن ينفي عنه كل ماكان يقال عن بخله، وكما أسلفنا من ذي قبل، إن هذه الحادثة ليست إلا استحضاراً لمشهد سيدنا إبراهيم (عليه السلام) عندما همّ بذبح ابنه إسماعيل (عليه السلام) تلبية لأمر الله عز وجل، "قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين" (سورة الصافات، ١٠٢.)، فأين الحطيئة من ذلك، إن من يتوانى عن تقديم الطعام لأضيافه لا بد وألا يقدم على مثل هذا الفعل.

[٢٠]- راعه: أخافه، تسوَّر: فرح.

[٢١]- العدم: الفقر، طرا: طرأ.

تتوالى أحداث القصة، ليأتي الحل دونما أية مقدمات، وذلك من خلال ظهور قطيع من الحمر الوحشية –وهذا بالطبع تتمة لإسقاط قصة سيدنا إبراهيم– التي افتدت ابنه، كما افتدى الكبش سيدنا إسماعيل.

فَبَينا هُما عَنَّت عَلى البُعدِ عانَةٌ ... قَدِ اِنتَظَمَت مِن خَلفِ مِسحَلِها نَظما
عِطاشاً تُريدُ الماءَ فَانسابَ نَحوَها ... عَلى أَنَّهُ مِنها إِلى دَمِها أَظما
فَأَمهَلَها حَتّى تَرَوَّت عِطاشُها ... فَأَرسَلَ فيها مِن كِنانَتِهِ سَهما
فَخَرَّت نحُوصٌ ذاتُ جَحشٍ سَمينَةٌ ... قَدِ اِكتَنَزَت لَحماً وَقَد طبقَت شَحما
(الحطيئة، ١٩٩٣، ص١٧٨–١٧٩).

لقد انتهت الحبكة القصصية بظهور هذا القطيع الذي كان بمثابة حل لهذه العقدة، أخيراً قام الشاعر باصطياد بقرة من هذا القطيع، وقدمها طعاماً للضيف؛ حتى لا يصفه بالبخل، العقدة التي لازمته في حياته، ويبدو أن هذا هو ما يؤرق الحطيئة.

أخيراً تأتي البشرى، من خلال لفظة (فباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم) وهو بيت القصيد، حقيقةً ومجازاً، إنه إفصاح لا شعوري من الشاعر، لينفي عن نفسه صفة البخل إلى الكرم، فمن كان ينعته بالبخل وبأنه لا يفي حق ضيفه، ها هو الأن يفي بهذا الحق على أكمل وجه.

فَيا بِشرَهُ إِذ جَرَّها نَحوَ قَومِهِ ... وَيا بِشرَهُم لَمّا رَأَوا كَلْمَها يَدمى(٢٢)
فَباتَوا كِراماً قَد قَضوا حَقَّ ضَيفِهِم ... فَلَم يَغرِموا غُرماً وَقَد غَنِموا غُنما(٢٣)
وَباتَ أَبوهُم مِن بَشاشَتِهِ أَباً ... لِضَيفِهِمُ وَالأُمُّ مِن بِشرِها أُمّا
(الحطيئة، ١٩٩٣، ص١٧٩).

القصة إذاً من نسج أحلام اليقظة عند الحطيئة، وهي تعويض صارخٌ عن عقدة البخل التي التصقت به، ما استطاع أن يتخلص منها في حياته، لكنه وجد ملجأً آخر عبر الشعر يفرغ به ما يدفع عنه هذه التهمة في مجتمعه.

الخاتمة:

لعل الحطيئة كان يطمح دائماً إلى أن يحظى بمكانة لا تقل شأناً عن أقرانه؛ مكانة عجز المجتمعُ عن تحقيقها له، لذلك راح يعزف بالكلمة موسيقا حياته متحدياً المجتمع من ناحية، ومن ناحية أخرى جهابذة الشعر في زمانه، الأمر الذي دفعه إلى أن يهويَ بمنزلة مَن لا يغدق عليه، والنيل من شرف مكانته، وذلك كله من خلال سلاح الهجاء الذي برع في استخدامه أية براعة، غير أن هذا لم يكن لينفي عنه صفة البخل التي لازمته طويلاً.

فلقد تبين لنا من خلال ما درسناه من أخبار الحطيئة وأشعاره –فضلاً عن فقره– أن شكله ونسبه المغموز، ومن ثم حرمانه من إرثه؛ كل ذلك لعب دوراً كبيراً في أن يجعل من الحطيئة رجلاً بخيلاً، ويبدو أن هذه الخصلة لم تأت من فراغ أو من قبيل التجني عليه، ففضلاً عن الحالة النفسية التي كان يمرّ بها؛ رأيناه كيف كان يأتي على أمر يُعدُّ منقصة عند العرب

[٢٢]- البشر: السعادة، الكلْم: الجرح.

[٢٣]- الغُرم: الخسارة والضرر، الغُنم: الفوز بالحاجة.

إذ لم يكن يكرم ضيفه فحسب بل كان كثيراً ما ينبري لهجائه، لذلك فقد لازمته هذه الصفة وإن حاول جاهداً أن ينفيها عن نفسه ولا سيما في قصيدته (وطاوي ثلاث).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الأبشيهي، شهاب الدين أحمد، (د. ت) **المستطرف في كل فن مستظرف**، شرحه: مفيد محمد قميحة، د.ط.

الأصفهاني أبو فرج ، (١٩٥٢م)، **الأغاني**، د.ط، مطبعة دار الكتب المصرية– القاهرة.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (١٩٨٢)، **الشعر والشعراء**. تحقيق: أحمد محمد شاكر. د.ط. ، دار المعارف بمصر– القاهرة.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (١٤١٤)، **لسان العرب**. الطبعة ٣، دار صادر– بيروت.

البغدادي، عبد القادر بن عمر، (١٩٩٧م)، **خزانة الأدب ولبُ لُباب لسان العرب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة ٤، مطبعة المدني، مكتبة الخانجي– القاهرة.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، (١٩٩١م)، **معرفة السنن والآثار**، علق عليه: عبد المعطي أمين قلعجي، الطبعة ١، دار قتيبة، دار الوغى– دمشق،بيروت، دار الوفاء– حلب، القاهرة.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (١٩٩٨م)، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة ٧، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني– القاهرة.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (٢٠٠٩م)، **البخلاء**، ضبطه وشرحه: أحمد العوامري و علي الجارم، الطبعة ٢، دار الكتب العلمية– بيروت.

الجمحي، ابن سلام، (د. ت)، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق: محمود محمد شاكر، د.ط. دار المدني– جدة.

حسين، طه، (٢٠١٢م)، **في الأدب الجاهلي**، الطبعة ٢، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة– القاهرة.

حسين، طه، (٢٠١٤م)، **حديث الأربعاء**، د.ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة– القاهرة.

الحطيئة، جَرْول بن أوس بن مالك، (١٩٩٣م)، **ديوان الحطيئة**، رواية وشرح: ابن السّكيت، دراسة وتبويب: مفيد محمد قمحة، الطبعة ١، دار الكتب العلمية– بيروت.

الصفدي، صلاح الدين بن أيبك، (د. ت)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أبو عبد الله جلال الأسيوطي، د.ط. دار الكتب العلمية– بيروت.

الضبّي، المُفضَّل بن سَلمة بن عاصم (د. ت)، **الفاخر في الأمثال**، اعتنى به: محمد عثمان، د.ط. دار الكتب العلمية– بيروت.

ضيف، شوقي، (د.ت)، **العصر الإسلامي**، الطبعة ٧، دار المعارف بمصر– القاهرة.

فتوح أحمد، محمد، (١٩٨٤م)، **الرمز والرمزية في الشعر المعاصر**، الطبعة ٣، دار المعارف بمصر– القاهرة.

المبرِّد، أبو العباس محمد بن يزيد، (١٩٩٧م)، **الكامل في اللغة والأدب**، علق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، دار الفكر العربي، مطبعة المدني– القاهرة.

محمد عطية، محسن، (١٩٩٣م)، **الفن وعالم الرمز**، د.ط، دار المعارف بمصر – القاهرة.

هصيص، علي، (٢٠١٥م)، **وجه الحطيئة/ مرايا الاتهام والبراءة**، الطبعة ١، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع– عمَّان، الأردن.